الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

ملخص الفصول السابقة

« لم يعد أودسيوس بعد إذ وضعت حرب طروادة أوزارها لأنه ضل طريقه فى البحر ولأن إله البحار نبتيون كان ألد أعدائه وكان لهذا واقفاً له بالمرصاد — وقد أبحر ولده تلماك ليسأل عنه الملوك الذين صحبوه إلى طروادة — وكانت أمه آية فى الجمال اليونانى الفذ فلما تأخر وصول زوجها طمع فى زواجها جميع أمراء إيثاكا وأمراء الجزر القريبة منها فحضروا إلى بيتها وحاصروها فيه ليضطروها إلى الزواج من واحد منهم ولكنها استمهلتهم حتى تفرغ من نسيج كانت تعمل فيه بالليل وتنقضه بالنهار ؛ وأبحر بعض عشاقها ليقتلوا تلماك فى طريقه إلى الوطن . وقد لقى أودسيوس أهوالا جمة هى أحسن مافى الأوديسة وقد مرت بالقارئ فى الفصول السابقة . ثم أوصله فلك الملك الفياشيين — أمراء البحر — سالماً إلى إيثاكا — وقد غيرت مينرفا ملامحه وأظهرته فى شكل شحاذ عجوز وأمرته أن يذهب ليبيت عند راعيه يومايوس وليظل لديه يومين أو نحوهما حتى تذهب هى فتعود بابنه تلماك سالماً إلى الوطن — وفى الفصل التالى يلتقى الولد أباه ويتعارفان ... »

أوديسيوس يلقى تلماك

لقد كانت هدأة الفجر الساكنة الجميلة حينما هب يومايوس وضيفه من نومهما ليلبسا ثيابهما ويعدا فطورهما ، وليرسل الراعى عماله وراء قطعانه النائمة فى السهل الصامت الوديع ... وحينما أقبل تلماخوس أهرعت إليه الكلاب تلحس ثيابه وتلعق قدميه ، وتهتز من نشوة وطرب لأنها رأته بعد طول الغياب ... وقد لحظ أودسيوس ذلك فقال يتحدث إلى الراعى : « يومايوس ! هذا أحد معارفك أو الأوداء إليك مقبل ... لشد ماتملقه الكلاب التى أوشكت من قبل أن تعقرنى ! إنها لاتنبح ولا تكشر ، بل تمشى فى إثره ذليلة ! » . وما كاد يفرغ من حديثه حتى كان ولده واقفاً أمامه فى رحبة الدار . وما كاد يومايوس يلمحه ، حتى هب من مقامه مسبوها مرتبكا ، وحتى انقذفت الأكؤس التى كان يمزج فيها الخمر من يديه ... بيد أنه ذهب إليه يقبله ويقبله ، ويبالغ فى تقبيله ، كأب مشوق لقى ولده فجأة بعد بضع سنين من مرارة البعد وألم الفراق ! ثم قال يكلمه : « أواه تلماخوس ؟ أهو أنت يانور عينىّ ؟ أنت نفسك ؟ أوَ قد عدت ؟ تالله ما كان يخطر بخلدى أنك عائد من سفرك بعد الذى دبّروا لك ! هلم ياحبيبى ! تعال يابنى ! فلقد عادت إلى روحى من سفر سحيق رؤيتك ... تعال تلماخوس فما أندر ماتزورنا هنا لطول اشتغالك بالعاميد المناكيد !! » وقال تلماك يجيبه : « أجل أيها الصديق ؛ غير أننى أتيت لأسألك عن أمى !! أما تزال مخلصة لذكرى أودسيوس قائمة على عهده ، أم أنها هجرت مهاده لتقع فى شرك

من شراك العناكب المحدقة بها ؟ ! » وأجابه الراعى فوصف له ما تلقاه الأم المحزونة من الضنى والحزن ، وما تذرف من الدموع فى جنح الليل لما يرميها به الحِدثان ... ثم دخل تليماك بعد أن أخذ الراعى حربته ، فنهض أودسيوس ليخلى لولده مقعده ، فأبى تليماك .. « لأن المكان فسيح ، ولأن يومايوس يستطيع أن يعد لنا مقعداً آخر ... فوالله لتجلسنّ أيها اللاجىء الكريم ! » . وهيأ الراعي لسيده مقعداً من الحشائش الغضة والجلفاء الرطبة جعل عليها فروة كبيرة مما عنده ؛ وجلس تليماك .. وأحضر يومايوس فطوره فى أطباق من أطباق أمس وشيئاً من الخبز والخمر ؛ ونشر الصحاف على الخوان أمام مولاه ، وأخذ الثلاثة يلتهمونها أكلة مريئة هانئة ... حتى إذا فرغوا ، توجه تليماك بالحديث إلى راعيه فقال : « ممن ضيفك يا أبتاه ؟ ومتى وصل إلى إيثاكا وكيف ؟ وأى الملاحين حملوه إلى شاطئنا ؟ » . قال الراعى : « والله يا بنى ما أستطيع أن أخفى عنك ما قال ؛ فهو يدعي أنه من نسل الأماثل الأمجاد من أمراء كريت ، وأنه طوف فى الآفاق ، وسافر فى البلاد ورأي من المدن ما لا عين رأت ... وهو يقول إن فلكاً تسپروتيا قد حمله إلى شاطئنا قبل أن تحمله رجلاه إلى كوخى هذا ... ولكن .. لم هذا ؟ ولم أتولى أنا الاجابة ؟ إنه أمامك وأنا أدع أمره لك ، فاصنع به ما تشاء ... إنه لائذ بك ، قاصد بابك ، وأحسب أن له حاجة عندك ! » وبدا الألم فى محيا الشاب فأجاب : « تالله لقد آلمني حديثك أيها الأب يومايوس ! أنت تجعله لائذاً بى قاصداً بابى ، وأنت تعرف من حالى ما تعرف ، وتعلم أننى مُرزأ بهذه الطغمة ، مشغول بوالدتى التى لا أستطيع أن أدفع عنها إصر هؤلاء الأنجاس المناكيد ، الذين طال لبثهم حولها ، وتوقهم بسببها حتى لأخشى أن تضيق بهم فتختار مرغمة ، أفضلهم بعلا لها ، أو أكثرهم عطاء ، وأوسعهم ثراء ... بيد أننى أوثر أن أمنحه دثاراً وصداراً ، ونعلين ، وسيفاً جرازاً ، ثم أرسله إلى أى أقاليم العالم شاء ، فى حمايتى ... وإن أحبّ ، فليبق هنا فى ضيافتك أنت ، وسأرسل إليه ما هو حسْبُه من طعام وشراب خشية أن يرهقك ، أو أن تضيق به ... أما أن يصحبنى إلى القصر الذى تعلم من أمره ما تعلم ، فذاك ما لا أرضاه له ... فقد يغمزه أحد بكلمة فيجرحه ، وأجرح أنا بسببه ، وأنت لا يخفى عليك أننى صغير لا أستطيع مهما أوتيت من الشجاعة أن أرد عادية هؤلاء الأوغاد » ، وتولى أودسيوس الاجابة فقال : « أوّه أيها الحبيب الطيب القلب ! لشد ما يتمزق نياط قلبي لما سمعت من أمر هؤلاء العشاق الأشقياء الذين يستبيحون منزل فتى كريم مثلك ! ولكن قل لى ، إذا أذنت أن أتكلم فى هذا الشأن : هل عن رضى منك لصقوا بمنزلك فما يريمون ؟ أم برغمك أيها العزيز ؟ أليس لك أخوة يسندونك ويشدون أزرك فتطردهم من بيتك ؟ أواه لو عاد لي شبابى الآن أواه ! وآه لو عاد الآن أودسيوس ! تالله لو أننى فى حالك هذه لآثرت أن أمتشق سيفي فى وجوههم فاما أن أطهر بيتى منهم ، وإما أن أخر قتيلا بينهم فلا تقع عينى على ما يصنعون ، ولا أرى إلى عيشهم وعبثهم بكل ما فى منزل أبى من خير ومَسير السنين الطوال ! » فقال تليماك : « ليس سراً أيها اللاجئ الكريم ما بينى وبين قومي ، وليس منهم من

يضمر لى عداوة أو يطوى جوانحه لى على حقد ... أما الأخوة والأشقاء فليس فى أسرتنا من رزق هذه النعمة ، بل هذا دأب عائلتنا منذ القدم ؛ ذلك أرْسـيَاس لم ينجب غير لترتيس ، ولم ينجب لترتيس غير أودسيوس ، وهذا لم ينجب غيرى ... أنا ... هذا المرزأ المحزون الموجع القلب .. من أجل ذلك طمع هؤلاء الطامعون فينا وتكالبوا على بيتنا من كل فج ، فأقبلوا من ساموس ودلشيوم وزا كنتوس وأطراف إيثاكا ، ومن الجزر الكثيرة المنتثرة فى هذا البحر ... كل يرغب أن تكون أمى له من دون العالمين زوجة برغمها ، فهم مقيمون لا يرعون ، آكلين ناعمين ، يستنفدون غلة ما ترك أودسيوس ، آتين على كل ما فى بيته وخزائنه ، ويوشكون أن يأتوا على أنا الآخر ! » ثم أمر يومايوس أن يذهب إلى القصر فيخبر أمه بعودته سالماً من بيلوس ؛ فذكره يومايوس بجده الضعيف الشيخ الذى امتنع عن الأكل والشراب منذ أن رحل تلماك يسائل عن أبيه ... وذلك مما أضواه من الهم ، واستأذنه فى أن يمر عليه فيخبره بعودة مولاه حتى يطمئن هو الآخر . ولكن تلماك أمره بأن يذهب من فوره إلى القصر فيخبر الملكة ، ولترسل هى إحدى وصيفاتها إلى جده فتخبره ... وانطلق يومايوس ... وكانت مينرفا تنتظر ذهابه لتبدو لأودسيوس فى صورة حسناء ذات وقار وحسن سمت ، وقد أخذت الكلاب بروعة مرآها فتكبكبت فى أحد أركان الحظيرة ، وراحت توقوق وتهر (١) مما شدهها من منظر مينرفا ، وقد لفت

(١) الوقوقة صوت الكلاب إذا خافت والهرير صوتها إذا أنكرت شيئاً (الثعالبى)

فلما أودسيوس فهب مسرعاً إلى ربة الحكمة التى قالت له : « الآن ينبغى أن تكشف نفسك لولدك فتقفه على حقيقة الأمر ، ثم تذهب معه إلى المدينة وفى قبضتك الموت الزؤام تجرّعه صاباً ويحموماً للمشاق . وسأكون دائماً معك ، وسأشرف على على المعركة بنفسى » ولمسته بعصاها السحرية فارتد إلى صورته الحقيقية ، وعاد إليه عنفوانه وجماله ، وتلك البشرة البُرنزية التى تلتمع فوق جسمه دائماً ؛ واستطالت لحيته كذلك ، وعاد إلى الكوخ فى حلته الضافية التى كانت عليه من قبل ... فلما رآه تلماك شُده وفَرِق وقال له : « أيها النازح الغريب ماذا أصابك ؟ لقد تبدلت أيما تبدل ! خبرنى أرجوك وأتوسل إليك ، أأنت إله كريم فنعفر لك القرابين ونذبح من أجلك الأضاحى ؟ » قال أودسيوس : « ليفرخ روعك يا بنى فما أنا إله إن أنا إلا بشر ، وإن أنا إلا أبوك الذى ذهبت تذرع الدنيا من أجله والذى بسببه غصصت بكل هذه الآلام ، وصبرت للؤم هؤلاء الناس ! » ثم ضم إليه ولده وطفق يقبله ويذرف دموعه على خديه !! بيد أن تلماك لم يصدق وراح بدوره يقول : « أبى ؟ لن تكون مطلقاً أبى ! بل أنت إله تنزل من السماء ليعبث بى ، وليزيدنى شقوة وأشجاناً ! أى بشر يستطيع أن يصنع ماصنعت ، وكنت منذ لحظة عجوزاً محدودب الظهر مجعد الوجه غائر العينين ، تلوح فى مزق وأسمال ، ثم تخرج هنيهة وتعود فى هذا البدن الفينان وذاك المظهر الفتان الذى لا يكون إلا للآلهة ؟ » فقال أبوه : « أى بنى أنا أودسيوس ، ولن يرجع إليك أودسيوس آخر سواى ! اطمئن يا ولدى فقد صنعت مينرفا ما رأيت بأبيك ، وما صنعته أنا بنفسى

إنها ربة ولها القدرة على كل شيء ، ففي وسعها أن تظهر من تشاء في صور شتى ، وليس هذا على أثينا بعزيز » وأحس تليماك ما كان يشيع في كلمات أبيه من حرارة وإخلاص لا يصدران إلا عن قلب أب ، فانطلق يبادل والده عناقاً بعناق ، ودمعاً بدمع ، وقبلات بقبلات : ثم سأله كيف عاد إلى الوطن بعد كل تلك السنين الطوال ، فقص عليه قصته ثم قال له : « ولكن حدثني أنت عن أمر أولئك العشاق الأوغاد ما عددهم ، وهل نستطيع كلانا أن نقف لهم فنظفر بهم ؟ » فأجاب تليماك : « أبتاه ! لقد سمعت الثناء على شجاعتك وسَعَة حيلتك وجليل حكمتك في كل خُبارٍ وكل نقع ... ثناء يلهج به فم الدنيا جميعاً ! بيد أنه ينبغي ألا نجازف هذه المجازفة التي لا نعرف ماذا وراءها ... إذ ما ذا يصنع اثنان بعشرين ومائة من خيرة صناديد إيثاكا وما حولها ؟ الرأي أن نفكر في أنصار يشدون أزرنا ويكونون عوناً لنا » فقال أودسيوس وهو يبتسم : « وما قولك يابني في اثنين الله — جوف العلى — ثالثهما ، وميرڤا نصيرتهما على القوم الظالمين ؟ أإذا كان هذان معنا ، أفنحتاج إلى عون آخر ؟ » فقال تليماك : « بلى ... تعالى جوف وجلّت ميرڤا ... إن لهما لأيدياً فوق أيدي الناس ، لأنهما يحكمان من فوق عرشهما الممرد فوق السحاب ، في الأرض والسماء على السواء . » وقال أبوه يزيده طمأنينة : « وسيكونان معنا في الحلبة حين يجد جدها ... فإذا كان الصباح فاذهب إلى القصر واختلط بالعشاق ؛ وسيقودني راعينا الأمين إلى هنالك ، متنكراً في صورة الشحاذ الفقير الذي رأيت ، فإذا فرطوا عليّ فلا تأس ، حتى ولو كان فرطهم بالضرب والسباب ... ويسرني أن تحتمل وتصطبر ، فإذا زادوا فاصرف عني أذاهم بكلمة طيبة حتى يحكم الله بيني وبينهم بأن يحين حينهم ... واحذر أن تخبر أحداً بعودتي حتى ولا أبي ... بل على الأخص أمك بنلوپ أو هذا الراعي يومايوس ... إذ ينبغي أن نستعين على أمرنا بالكتمان حتى نعرف أصدقاءنا ونخبر أعداءنا ! » وطمأنه تليماك وأكد له كل شيء ... ثم وصل يومايوس إلى بنلوپ فأخبرها بعودة تليماك ، وذاع النبأ بين العشاق فذعروا ، لفشل مؤامرتهم ضده ، وانتشروا خارج القصر ، واعتزموا أن يبعثوا نفراً منهم بهذا النبأ إلى الطغمة التي ذهبت تتربص بالفتى لتغتاله إذ هو عائد من بيلوس ... ثم اجتمعوا يمكرون السيئات ويدبرون قتل تليماك حين تتيح فرصة أخرى . وكان ميدون قريباً منهم فاسترق سمعهم وطار به إلى بنلوپ التي هالها ما مكروا وما دبروا ، فذهبت في جميع وصيفاتها إلى رحبة القصر ، حيث اجتمع أعداؤها إلى شياطينهم ، فصاحت بزعيمهم أنطونيوس من وراء حجابها قائلة : « أنطونيوس تبت يداك يا ألأم الناس ! أنت يا من يدعونك التقي الصالح وأنت أسفل مما يظنون طوية وأخبث سريرة ! كيف حدثتك نفسك بهذا التدبير السيء فترسم لأشراك قتل ولدي الذي لم يعد لي في الحياة رجاء غيره ؟ أَلِأنه ضعيف بنفسه ؟ ألا فاعلم أنه قوي بالله الذي ينتقم لعباده من الظالمين ! أيها اللئيم ، أبمثل هذا تجزي جميل أودسيوس الذي حال مرة بين أبيك وبين أعدائه معرضاً بنفسه للتهلكة ولولاه لظفروا به ، ولولا أن قتل منهم من قتل وصرع من صرع لعجلت روحه إلى نيران هيدز وبئس القرار ؟ أفلم

يكفك ما تأكل بغير حق من زاده ، وتعبث غير عابئ بعتاده ، فترسم لأشرارك غيلة ابنه ؟ » وانبرى بوزيماخوس يهدئ من ثورتها ويطمئنها أن أحداً من العالمين لا يستطيع أن ينال تليماك بأذى ما دام هو حياً يدب على قدمين ... وكان يتكلم برغم ما كان ينطوي عليه قلبه ... لأنه كان من أكبر المتآمرين على حياة ابنها العزيز الحبيب ... ! وبعد أن توارت أورورا عاد الراعى إلى حظائره يدب على عكازه ؛ وكانت مينرفا قد لمست أودسيوس بعصاها السحرية فعاد إلى صورة الفقير الشحاذ وعادت إليه رِمَّته وأسماله ، فوجد سيده وضيفه الفقير يعدان عشاءهما . ولما لمحه تليماك قال له : « ما وراءك يا يومايوس الصالح ؟ أعلمت عن الطغمة التى استأنت في ساموس تتربص بى شيئاً ؟ » فأجابه الراعى : « تالله لا علم لى بشىء يا مولاى ، فأنا لم أنتظر طويلا فى المدينة لأتسقط الأنباء ، لأنك أمرتنى أن أرتد على عجل ؛ بيد أننى لمحت مركبا يطوى البحر إذ أنا عائد ، ويدخل المرفأ ، وفيه من العُدة والعَدَد ما يبهر النظر ويخطف البصر ، وأحسب أنهم هم الأمراء الذين تعنى ، غير أننى لا أجزم بهذا »

ونظر تليماك إلى والده مبتسما ، محاذراً أن ينتبه الراعى إلى شىء

* * *

أوديسيوس فى قصره

ونضرت أورورا جبين الشرق بالورد ، وخضبته بالشفق ، فهب تليماخوس من نومه الهانئ الهادئ الموشى بالأحلام ، فلبس وانتعل ، واخترط جُرازه ثم قال لراعيه : « أيها الأب الصديق ، إنى متوجه إلى المدينة لألقى أمي ، فأكبر الظن أنها لن ترقأ لها دمع ولن تخفت لها آهة حتى ترانى ... أما هذا اللاجىء ... فرأيى أن ينطلق إلى المدينة فليسأل الناس وليطرق الأبواب ، ولن يعدم إذا تكففهم أن ينال رزقه ويحصل على لقمات يتبلغ بها ... إن لدى من المتاعب والمشاق ما يشغلني عن كل جوّاب آفاق ... إمض به إلى المدينة إذن ؛ فاذا آله هذا ، فهو حر ... إنى رجل لا أعبأ أن أقول الحق : » فنهض أودسيوس ليقول : « سيدى : إنى لم أبغ أن أتلبث هنا ، فليس لشحاذ فقير مثلى أن يلتمس رزقه فى الحقول والغيطان ! بل إنى منطلق إلى المدينة ولست مقعداً أو ضعفاناً فلا أقوى على عمل يؤجرنى عليه أحد أمرائها ... تفضل أنت فاذهب لطيتك ، وسأمضى أنا مع خادمك حين تَمْتع الشمس قليلا ، فأنا كما ترى رجل شيخ ، وأخشى أن يقتلنى برد الصباح وصقيعه ، وليس مايحفظنى منهما إلا ماترى من رِمَّة مضى أصلها وبقى رقعها ! » ... وانطلق تليماك فبلغ القصر ، ولقى أول من لقى مرضعه يوريكليا ، حيث كانت وأترابها ينشرن فراء على كراسى وحالات مبعثرة فى الردهة ... فلما رأته عجلت إليه ورحبت به وسلمت عليه ، وانطلقت الدموع من عينيها فانعقد لسانها وانحبس منطقها ، ثم اجتمعت الجوارى يقبلن تليماك ويحدقن به حتى لفتن نظر الأم المعذبة المحزونة المطلة من إحدى شرفات القصر ، فأهرعت من علٍ وأخذت في حضنها المحب الرحيم أعز الأبناء ، وأمطرت جبينه وخديه بالدموع والقبل ثم جعلت تقول له : « أوَ قد عدت إلى الوطن يا نور عينى ! تليماك ! تالله لقد وقر فى

قلبي أنني لن أراك بعد إذا أبحرت إلى بيلوس برغمي ، وعلى غير علم مني ، لتتسقط أنباء أبيك... ولكن ... خبرني يا بني ماذا عساك سمعت . » فقال الفتى : « أماه ! لم تعودين بذاكرتي إلى عبوس الحياة وقد أفلت من الموت ؟ أولى لك ثم أولى أن تضفي عليك من أفخر أثوابك ، ثم تصلي للآلهة أن تهيء لنا يوم انتقام عادل لايبقى ولا يذر ! ! بيد أنه ينبغي أن أذهب الآن لألقى ضيفاً كريماً عزيزاً جداً على ـ عزيزاً جداً على يا أماه ! ـ حضر معي في سفينتي أمس ، وقد أرسلته مع من يضيفه عني حتى أعود فأضيفه أنا نفسي » وذهبت پنلوپ فصلت طويلا للآلهة ، وانطلق تليماك فالتقي تيوكلمنوس وعاد معه إلى القصر ، وجلسا يتحدثان بينما أحضر أحد الخدم مائدة حافلة بألوان الطعام وأطيب صنوف الشراب ، فوضعها أمامها ... وأقبلت پنلوپ فجلست لدى الباب تنسج ثوبها الذي لاينتهي ! فلما فرغا من طعامهما أقبلت فقالت تخاطب تليماخوس : « يبدو لي أنك لن تقص على الآن ما سمعت من أنباء أبيك ياتليماخوس ، وأوثر إذن أن أصعد فأضجع في فراشي الذي أبلله دائماً بدموعي منذ فارق أودسيوس ... فإذا انصرف الأوغاد المعامید وفرغت من شغلك بهم فاحضر إلى لتقص عليّ من أنبائه . » ولكن تليماك قال : « أماه ! لم لا أقص عليك ماسمعت وما سافرت إلا لأطمئنك وأطمئن نفسي ؟ لقد سافرت إلى پيلوس وحظيت بلقاء نسطور الذي هش لي وبش وفرح بي كأنما أنا ابنه الذي افتقده طويلا وعاد فجأة إليه ؛ غير أنه لم يذكر لي عن أبي قليلا أو كثيراً لعدم علمه بشيء من أنبائه ، ولذلك بعثني مع واحد من أبنائه إلى ملك أسپرطة لأسأله عن أبي ... وقد لقيني منالوس فأحسن لقائي وأكرم مثواي ، ورأيت زوجه هيلين الحسّان الفتان التي شبت بسببها حروب طروادة ، والتي لقي من أجلها أبطال الأغريق أنكى ألوان العذاب ... ولما سألني الملك فيم قدمت ، نبّأته بأنباء العشاق المعامید ، ووصفت له مايجرون على بيت أبي من الخراب ، فأرغى وأزبد ولعنهم أشد اللعن ، وتوسل إلى الآلهة أن ترد إليهم أودسيوس فيبطش بهم ، ويعيد إليهم صوابهم ، ثم قص علي ماسمعه من أحد أرباب الماء ـ پروتيوس ـ الذي أخبره أن أبي مايزال حياً يرزق في إحدى الجزر النائية ، وأن عروساً من عرائس الماء تحجزه عندها في تلك الجزيرة برغمه ، لأنها تحبه وتهواه ، وأنه لايجد سفينة يهرب عليها إلى الوطن ... هذا يا أماه كل ماعلمته عن أبي من الملك منالوس ، وقد أذن لي في العودة ، فأبت في رعاية السماء وحفظ الآلهة » . وكانت پنلوپ تصغي وثورة من الحزن تجتاح نفسها ، ولظى من الوجد يفتك بقلبها . فلما فرغ تليماك ، التفت تيوكليمنوس المتنبي إلى السيدة الرؤوم فقال : « يازوج أودسيوس أعيريني سمعك ! إصغي إلي فسأتنبأ لك ! إن ابنك هذا لم يسمع عن أبيه أي نبأ يقين ... أما أنا ، فقد بدت لي أمارات وشهدت في السماء علامات ... ومحال أن تكذب علامات السماء ... أقسم لك بجوف العلي رب الأرباب ، وأقسم بهذا البيت بيت أودسيوس ، أن زوجك هنا ، وفي إيثاكا ... وهو يعلم كل صغيرة وكبيرة من أنباء العشاق وخباثاتهم ، وإنه ليدبر لهم عقاباً هائلا لن يفلت أحداً منهم !! » وسكت المتنبي ... وأقبل العشاق من لعبهم فخلعوا عباءاتهم ،

ثم نشطوا إلى الشاء والخنازير فجزروا لطعامهم ...

هذا ما كان من أمر تلياك وأمه ، وما كان من أمر العشاق . أما ما كان من أمر أودسيوس فقد مضى فى الطريق إلى المدينة يخطو متعثرة والراعى بين يديه ، وعلى كاهله حقيبته ، وفى يده عكازه ، وكلما لقيهما أحد صعّر خده ، وشمخ بأنفه ، تقززاً من منظر هذا الشحاذ الفقير القذر ... ثم أتيا إلى نبع يتفجر في الطريق فيستق الناس منه ، وقد بسقت من حوله أشجار الحور والسنديان ، وترقرق المـاء فوق الحصباء كاللجين يتدحرج من حَيْـد أكمةٍ هناك ، أقام الصالحون فوقها مذبحاً لعرائس الغاب حيث يتقـدم الناس بنذورهم ويعقرون إضحياتهم ... وقـد لقيا هناك راعى ماعز الملك — ملانثيوس — يسوق قطيعاً من أسمن ما رعي لأجل ولأثم العشاق ... ولقد كان ملانثيوس هذا من أذنابهم ومتملقيهم . وكان يصنع كل ما يحببه إليهم ويضمن له عطفهم ، فلما رأى الفقيرين وأحدهما زميل له ، انطلق يهذى ويصخب ، ويسب ويسخر ، ويغمز الرجلين غمزاً شديداً موجعاً ، حتى غلى الدم فى رأس أودسيوس: « إنْـشملا أيهٰذان السخان! طاعون يجتاحك يا راعي الخنازير القذر ! حقاً إن الطيور على أشكالها تقع ! كلب يقود آخر ... إلى أين ؟ إلى حيث يلتقط فتات موائدنا ! عجباً ؟ ألا تطلقه معي إلى المزارع ينظف الزرائب ويحمل العلف ويحرس الغلة ويشرب ما شاء من اللبن الحازر [١] والمخيض ، ويكسو عظامه المعروقة باهاب من اللحم؟! ولـكن هيهات ! فقد بلدت طباعه فلا يصلح لعمل شريف ! » وهكذا ظل الراعى الشرير بقيء من هذا البذاء ، وركل أودسيوس آخر الأمر ركلة قوية فى ساقه ، فلولا ما حرص الملك عليه من كتمان أمره لحطمه بسببها ، ولمسح به ظاهر الأرض ! ولقد هاج هائج يومايوس فدعا آلهته لتنتقم لرفيقه الضعيف وطفق يقول : « يا عرائس هذا النبع المقدس اسمعي بحق ما عقر لك أودسيوس وباسم ما ضحى أن ترديه إلى بلاده لينتقم من أمثال هذا الوغد الزنيم الذى لا يحسن إلا أن يملق أعداء مولاه ، وإلا أن يغشى رحابهم ، بينا قطعانه سائمة فى المرج لا راعى لها ولا حفيظ ! » فصاح الراعى الوقح : « هاه ! أجيبى يا عرائس دعاء كلبك الأمين ! أواه لو أستطيع أن أحملك فى فلك أحد هؤلاء السادة فأبيعك بيع الرقيق فى بلد سحيق ! أودسيوس ما ذا أيها البهيم! لقد أودى أودسيوس ولن يعود إلى الحياة قط . وبودى لو لحق به ابنه تلياك ! ! » ... قالها ... وانطلق حتى بلغ القصر وغشى مجلس العشاق يطرفهم بما حدث له مع راعى الخنازير ... أما أودسيوس وأمينه فقد سارا رويداً حتى أتيا بوابة القصر فتلبثا عندها ... وتناول أودسيوس يد الراعى وقال : « يومايوس ! لا ريب أن هذه سراى الملك ! أنظر ! هاهى ذى الحجرات يتلو بعضها بعضاً ، وهاك الرحبة الـكبرى ذات العماد وذات الأبواب ... وإنى أحدس أن هناك أضيافاً اجتمعوا لوليمة ، وهذا قتار اللحم يملأ خياشيمي ، وإرنان القيثار يجلجل فى أذنى ... » فقال يومايوس يجيبه : « أنت ذكى شديد الذكاء ! إنه هو المـكان بعينه ، والآن ، هل تذهب أنت وحدك فتستعرض الأمراء وتعود ، أم تنتظر حتى أذهب أنا فأختطف نظرة إليهم ؟ على أنك يجب ألا تتلبث هنا طويلا ، فقد يراك بعضهم

(١) شديد الحموضة والمخيض الذى استخرجت زبدته

فيؤذيك ويطردك من هنا شر طردة » وقال أودسيوس : « بل انطلق أنت وإني منتظرك هنا ، فاذا لكمني أحد أو لكزني أو ركلني ، فلشد ما احتمل هذا وذاك ، وهل هو إلا بعض ما احتملت في حروبي الطويلة ؟ » وبيناهما يتحدثان ، إذا كلب كبير رابض يقف فجأة فيمبص بذنبه وينصب أذنيه ، ويحدق بصره في أودسيوس ، ويظل مسحوراً ذاهلا ! ! آه ! إنه الكلب العزيز آرجوس الذي رباه الملك قبل أن يرحل إلى طروادة ... لقد أهمل أمره ، فهو رابض هكذا في حمأة من الروث والقذر والقُمل أمام بوابة القصر ، كالشاعر العجوز الذي يجتر ذكرياته ! ! لقد عرف صوت مولاه برغم السنين الطوال ، فبكى ، وهر ، وأرسل الدموع حراراً تسقي صدغيه ! وقد تأججت في قلبه الحيواني ثورة من الحزن الطارئ المفاجئ فلم يقو أن يزحف ليمسح بلسانه قدمي مولاه ... وقد لحظ أودسيوس ما أصاب كلبه العزيز فبكى هو الآخر تأثراً ، وسجل هذه الآية من الوفاء للحيوان على الانسان ! وأشاح بوجهه عن الراعي حتى لايدرك مابعينيه من دموع . فلما مسحها بكمه قال يحدث يومايوس : « أليس عجيباً ومؤلماً معاً يا صديقي أن يتركوا هذا الكلب الذي تبدو عليه سيماء النبل فوق هذه الكومة من الروث ؟ قد يكون أقعده الضعف عن متابعة الصيد وقد يكون بقاؤه عليه من أجل منظره وحسن سمته ! ! » فأجابه الراعي : « أوه ، بلى أيها الرفيق ! أما والله لو شهدته في إثر مولاه أودسيوس لعجبت لعظم قوته وشدة جبروته ! أبداً لم يخلق الله وقتئذ كلباً أتبع لصيد ، أو أقوى حاسة شم منه ؛ وأبداً لم يكن عندنا كلب ليس يدرك عَدْوَه كلب كآرجوس هذا الرابض يساقط نفسه أنفساً ! ! إنه يبكي مولاه الذي قضى وتركه من ورائه لإهمال الوصيفات وقلة اكتراثهن ... أما عبيد هذا القصر فهم كالوصيفات حذوك النعل بالنعل ، فهم لا ينشطون لعمل كما ينشطون وسيدهم بينهم ، ثم هم قد فقدوا بالعبودية وذلة الرق نصف آدميتهم ورجولتهم ! ! » ثم مضى أودسيوس نحو صديقه وخدن صباه ، فبكى وذرف دموعه ، وكذلك فعل الكلب ... حتى مات ... ولكن بعد أن رأى سيده تارة أخرى ! !

ولمح تليماك راعيه فأومأ إليه ، وأخذه جانباً ، ثم أمده بنصيب جزيل من طعام الوليمة ... وبعد لحظات أقبل أودسيوس في صورة الشحاذ الفقير ، وجلس على الأرض ، فأرسل إليه ولده شيئاً من اللحم والخبز مع يومايوس ، وأمر إليه أن يرسله بين الأمراء يتكفف ، وبالأحرى ليتعرف ، فلما فرغ من طعامه نهض فسار بينهم يسأل هذا ويحدق فيه ، وينصرف إلى ذاك ويحدجه ، ويمد يده من أجل لقمة كما يصنع الشحاذون ، وقد رثي له كثيرون فأمدوه بلقمات ومضغ من اللحم ، إلا أنطونيوس ، فقد استهزأ به وبمن أحسن من الأمراء إليه ، وعيرهم بأنهم يتصدقون بما ليس لهم ثم هاج وماج ، ورفع كرسياً أوشك أن يحطم به رأس أودسيوس ، وأمره أن ينصرف فلا يعكر عليهم صفوهم أكثر مما فعل ! ! ولكن الكرمي صدع كتف الملك ، وأعفى رأسه ، ووقف أودسيوس كالصخرة لا يتحرك ولا ينبس ببنت شفة ... ولكن ألف ألف فكرة سوداء كانت تكظ فؤاده وتزحم تفكيره ... ثم مضى فجلس حيث كان من قبل ، وهتف بالعشاق في صوت جهوري فقال : « سادتي الأمراء اسمعوا ! تالله لو أنها ضربة في حرب بين كفتين لما حملت لها موجدة في نفسي ...

ولكن أنطونيوس رأى من سلطان الجوع والضعف على ما جرّأه وأثار نخيزته ... وأنا مع ذلك أترك جزاءه لله ، وأضرع إليه جل ثناؤه أن يقبضه قبل أن تزف إليه عرسه !! » وكأنما خجل العشاق مما فعل أنطونيو فجعلوا يلومونه ويتلاومون فيما بينهم . قال قائلهم : « من يدرى ؟ ألا يحتمل أن يكون أحد آلهة السماء جاء ليبلونا ... والويل لك يا أنطونيوس إذا صدق حدسنا ... ألا تعلم أنهم طالما يتنزلون فيغشون مدننا فى صور الشحاذين ليروا بأعينهم ما نأفك وما نمين ؟ » ولم يبال بهم ولم يأبه لما قالوا ... وكان تلماخوس يتميّز من الغيظ ، ويُسر فى نفسه أوجع الألم لما نال أباه من الضرب ، بيد أنه غلب غضبه ، وحبسه فى أعماقه ، كما حبس فى عينيه وابلاً من الدموع ... وكانت بنلوپ تطلع من شرفتها وترى ما حل بالرجل من إيذاء ، فهتفت بيومايوس أن يدعوه إليها كيما تسائله عن أودسيوس ، لما يبدو عليه من أثر السفر وجوب الآفاق . قال الراعى : « أجل يامولاتى ، إنه رجل من كريت ، وقد خاض ألف مكروه قبل أن تحمله الصدفة إلى بلادنا ؛ ثم هو محدث ساحر الحديث طلي الرواية ، حتى ليخلب سمع من يصغى إليه بأشد مما يستطيع منشد مطرب أن يفعل ؛ وكلما طال حديثه لذت طُلاوته ، وكثرت حلاوته ، فلا تمل أذنان ، ولا يضيق به مصغٍ إليه ... وأعجب ماذكره مرة لي أنه رأى أودسيوس وعرفه فى أيبروس ... بل يزيد فيؤكد أن مولاي عائد أدراجه إلينا ، حاملاً معه كنوزاً من الذهب ، وأذخاراً لم تر العين مثلها ولم تخطر على قلب بشر !! » فتنهدت بنلوپ وقالت : « انطلق إذن فأحضره ، ودعه يحدثنى بما روى وجهاً لوجه ، وسأهبه صداراً ودثاراً إذا توسمت فى قوله الحق ، وآنست فى روايته الصدق »

وادعى أودسيوس أنه يخشى أن يجوز وسط الأمراء مرة أخرى ، وفضّل أن يلقى الملكة فيتحدث إليها إذا جنّ الليل بجانب المدفأ ... ووافقت الملكة ، وصوّبت رأي الرجل ؛ وكان الوقت أصيلاً فقصد الراعى إلى تلماك واستأذنه في الانصراف إلى حظائره ، فأذن له ، ولكن بعد أن أمره بالتزود لعشائه ، ففعل يومايوس ، ثم مضى ليسهر على خنازيره

« يتبع » دريني خشبة

ظهرت حديثاً

مسرحيات

توفيق الحكيم

فى مجلدين

٦٠٠ صفحة

ثمن الجزءين معاً ١٨ قرشاً مصرياً

عدا أجرة البريد

تطلب من ناشرها

مكتبة النهضة المصرية

١٥ شارع المدابغ بالقاهرة

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾